

## الفصل الأول

### مجتمع الفضيلة ومجتمع الرذيلة

#### مقدمة :

تختلف المجتمعات فى مقدار أخذها بالفضائل الأخلاقية . وهى لهذا تتفاوت قوة وضعفاً بحسب نظام أخلاقها صالحاً أم طالحاً . فالمجتمع القوى قوى بأخلاق أبنائه وصلاحهم . والمجتمع الضعيف ضعيف بفساد أخلاق أبنائه وانحلالهم . ذلك أن الفضيلة كما يقول ابن مسكويه لا تتحقق إلا بالممارسة والتعامل بين الناس . فضيلة الفرد من فضيلة الجماعة والعكس صحيح . وخير الفرد من خير الجماعة والعكس صحيح أيضاً . ومن هنا تكون العلاقة بين الفرد والجماعة علاقة تفاعلية تبادلية تقوم على الأخذ والعطاء كل منهما يستمد قوته من الطرف الآخر . والدين أصل الفضائل وأساس الأخلاق فهو يتضمن قيماً اجتماعية وغايات سامية ومثلاً علياً تهى للمجتمع سبيل التكامل والعيش فى طمأنينة . وهو طريق الوصول إلهي الكمال الانسان ، وقد كان فساد الأخلاق سبباً هاماً فى انهيار المجتمع وزوالها على مر العصور وكر الأزمان . وقد عبر أمير الشعراء عن هذا المعنى أبلغ تعبير بقوله :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت . . . فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا  
وقوله أيضاً

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم . . . فأقم عليهم مأتماً وعويلا

#### تعريف الفضيلة :

الفضيلة عند علماء المسلمين عمل يفرس الخير فى الوجود . ويعرف أحمد أمين الفضيلة ( الأخلاق : ص : ١٠١ ) بأنها ميل مكتسب من تكرار أفعال طيبة تتفق مع القانون الأخلاقى . فهى عادة فعل كل ما هو خير . وكل عادة طيبة اعتادتها النفس تعتبر فضيلة كالشجاعة والثبات والاعتدال والصراحة وقول الحق . ولذا يقال إن الفضيلة هى الخلق الطيب .

وتعنى الفضيلة أيضاً العمل الخير الكبير مع تحمل المشاق فى سبيله . وهذا يفهم من الاشتقاق اللغوى للكلمة ذاتها . فهى مشتقة من الفضل وهو

الزيادة . والفضيلة عند فلاسفة الإغريق غاية السلوك الإنساني ووسيلة تحقيق سعادة الإنسان ، ويرى بعض علماء المسلمين منهم الغزالي وابن مسكويه وغيرهما أن الفضيلة هي التوسط والاعتدال أو نقطة الوسط بين رذيلتين . فالشجاعة وسط بين التهور والجبن . والجود أو الكرم وسط بين الإسراف والتقتير أو البخل ، والعفة وسط بين الفجور والجمود . وهذه النظرية الوسطية للفضيلة ترجع إلى فيلسوف الإغريق المعروف أرسطو ، وقد عرفت نظريته بنظرية « الأوساط » . وقد انتقدها أحمد أمين واعترض عليها ( الأخلاق ص : ١٠٣ ) لأسباب منها : أن هناك كثيراً من الفضائل لا يظهر فيها أنها وسط بين رذيلتين كالعدل والصدق ، فليس هناك إلا ظلم وعدل وصدق وكذب ، ومنها أن بعض الفضائل ليست وسطاً بين رذيلتين . فالشجاعة ليست على بعدين متساويين من التهور أو الجبن بل هي أقرب إلى التهور ، وكذلك الكرم أقرب إلى الإسراف منه إلى البخل . أى أن الفضيلة ليست وسطاً حسابياً صحيحاً . ولكن يمكن الرد على اعتراضات أحمد أمين رغم احترامنا الشديد لوجهة نظره بأننا لو نظرنا فى حقيقة الأمر إلى ما ذكره فى اعتراضه الأول عن فضائل لا يظهر فيها الوسطية أن لها وسطية بالفعل . فالعدل مثلاً توسط بين الظلم وبين المحسورية أو المجاملة أو التسبيب وكذلك الصدق يمكن أن ينظر إليه على أنه توسط بين الكذب وبين التهويل أو « الفشر » كما يعرف بالعامية .

أما بالنسبة لاعتراضه الثانى الذى يقول فيه إن الفضيلة ليست وسطاً حسابياً صحيحاً بمعنى أنها تميل إلى أحد الطرفين أكثر من الآخر ، فنقول إن المقصود ليس الوسط الحسابى الصحيح لأن الأمر لا يتعلق بمسألة حسابية وإنما يتعلق بأمور معنوية يصعب الوصول فيها إلى تقديرات كمية . فنحن لا نستطيع أن نقدر الكذب أو الصدق كمياً . ومن هنا يعصب تقدير أي وسط حسابى . والمعنى هنا على سبيل المجاز والتقدير المعنوى .

ولا بد أن تأتى الفضيلة عن اقتدار وتمكن لا عن ضعف وتظاهر فالعفو فضيلة إذا جاء عن اقتدار . وقد قيل العفو عند المقدرة من شيم الكرماء . أما إذا جاء العفو عن ضعف فلا يعتبر فضيلة أخلاقية وإنما هو تصنع وتكلف ومراعاة . وقد قال الشاعر فى هذا المعنى

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة . . . فلا خير في ود بجنى تكلفاً  
وكذلك الجود والكرم والحلم وغير ذلك من الفضائل وقد قال المتنبي :  
كل حلم أتى بغير اقتدار . . . حجة لاجئ إليها اللئام

يقول المنفلوطي : « ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال. وإنما هي حالة من حالات النفس تسمو بها إلى أرقى الدرجات الانسانية وتبلغ بها غايتها من الكمال » . لكن المنفلوطى من ناحية أخرى كان يرى أن الشرور الرذيلة قد استشرت في المجتمع إلى درجة جعلت تكاليف الفضيلة باهظة إذا أراد المرء أن يتمسك بها في مجتمعه المعاصر . فالحياة معترك أبطاله الأشرار ، وأسلحتهم الرذائل . فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى . ولذلك يقول : كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحتفظون بالجميل لصاحبه . فإذا هوى به كرمه . . لا يعدم أن يجد . . من يمد إليه يعد المعونة . أما اليوم وقد أنكر الناس الجميل . . بل أصبحوا يشمتون بصاحبه يوم تزل به قدمه ، ويصبون على رأسه جميع ما في كتب المترادفات من أسماء الجنون وألقابه ، فليس الكرم فضيلة . وليس من الرأي الدعاء له والحض عليه . وقد يبدو في هذه النظرة للمنفلوطى مبالغة في اليأس والتشاؤم . فالكرم مطلوب في حدود الاعتدال وبمقدار ما تسمح به إمكانيات الكرم دون أن يؤثر ذلك على مستوى حياته أو بتهددها . فليس المقصود هنا « الكرم الحاقى » فهو لا يصلح لمجتمعنا المعاصر . وربما أن هذا النوع من الكرم هو ما عناه المنفلوطى . لقد كان المنفلوطى إنساناً مثالياً . وكان يضيق ذرعاً بشرور المجتمع . ولذلك ظل طول حياته يبحث عن الفضيلة فلم يجدها ، وصارت ضالته المنشودة .

#### الفضيلة هي الضالة المنشودة :

أشار المنفلوطى في كتابه إلى أن الفضيلة ضالته المنشودة وأنه فتش عنها حتى عسى بأمرها فما وجد إليها سبيلاً . فتش عنها في حوانيت التجار فرأى التاجر لصاً في أثواب بائع . وفتش عنها في قصور الأغنياء فرأى الغنى إماً شحيحاً أو متلافياً ، وفتش عنها في مجال القضاء ومجامع السياسة وكراسى الملك وبين رجال الدين ورجال الصحافة وفي كل مكان فلم يجدها . ويقول إن كل الناس يدعى الفضيلة ويلبس لباسها بما يخدع أسوأ الناس بالناس ظناً ، فكيف

يتسنى له الوصول إليها فى هذا الظلام الحالك . ويستطرد المنفلوطى قائلاً : لقد سمج وجه الرذيلة فى عينى وثقل حديثها فى مسمى حتى أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب فلا أشعر بخيرها وشرها وسرورها وحزنها . ( المنفلوطى : مختارات المنفلوطى : ص ص ١٠٥ - ١٠٦ ) .

#### أمهات الفضائل :

جمع الاسلام الفضائل كلها وأحصاها وحث المسلمين على اتباعها . وقد اهتم علماء المسلمين فى كلامهم عن الأخلاق ببيان الفاضل والمفضول والحميد والمحمود والرذيل والمردول . ويشير الغزالي إلى أن الأخلاق الجميلة هى الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن . والأخلاق الخبيثة هى الابواب المفتوحة إلى نار الله الموقدة . وهى أى الأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس . ويشير إلى أن علاجها وصلاحها إنما يكون بالعمل بقوله عز وجل « قد أفلح من زكاهها » وأن إهمالها هو المراد بقوله سبحانه وتعالى « قد خاب من دساها » . والشريعة فى نظر ابن مسكويه وغيره من علماء المسلمين تربي النفس على الفضيلة والآداب القوية حتى تتعودها النفس . وليست الفضيلة مقصورة على العبادات دون غيرها من أمور حياة المسلم . قيل لرسول الله (ص) إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها . قال : « لا خير فيها هى من أهل النار » . وقال عليه السلام لأبى ذر العقارى : يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق » . وقد أكد الإسلام على أن الإيمان لا يكتمل إلا بحسن الخلق وأن الإيمان يقوى بالأخلاق الكريمة . وأحب عباد الله إليه أحسنهم أخلاقاً . ويرى الغزالي مقتدياً بأبن مسكويه أن أمهات الفضائل أربعة هى : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والباقى فروعها . وهو يعنى بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ فى جميع الأفعال الاختيارية . ويعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقاداً للعقل فى إقدامها وإحجامها . ويعنى بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع . ويعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة وتضبطها فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها ومن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الحميدة كلها ( الإحياء : ج ٣ : ص ٥٣ ) .

ويذكر الغزالي أنه لم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأصول الأربعة إلا رسول الله (ص) والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه . فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قرابه من رسول الله (ص) .

ويقول الماوردي (ص : ٤٦) في أخلاق العلماء : إن صيانة النفس من أصل الفضائل لأن من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . ومن أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلة وتوكلاً على ما يلزم الناس من صيائته ، سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبیح تبذله . فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبذل . لأن القبیح أنم من الجميل والرذيلة أشهر من الفضيلة . إذ الناس لما في طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوئ . فلا ينصفون محسناً ولا يحابون مسيئاً ، لا سيما من كان بالعلم موسوماً وإليه منسوباً . فإن زلته لا تقال ( لا تغتفر ) وهفوته لا تعذر ، إما بقبیح أثرها ، واغترار كثير من الناس بها . وقد قيل في منشور الحكم زلة العالم كالسفينة تغرق ويفرق معها خلق كثير . وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام : من أشد الناس فتنة ؟ قال زلة العالم ، إذا زل هلك بزلته عالم كثير . فهذا وجه . وإما لأن الجهال بذمه أغرى وعلى تنقيصه أخرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصيص ( أى تميزه عنهم بخصوصية العلم ) عناداً مما جهلوه ومقتناً لما يابنوه . لأن الجاهل يرى العلم تكلفاً ولوماً ( أى يلام عليه لأنه مضبعة للوقت ) . كما أن العالم يرى الجهل تخلفاً وذماً .

ويأتى في مقدمة أمهات الفضائل العدل ، وانتشاره بين الناس في تعاملهم . فالعدل أساس الملك . وقد أمرنا الله عز وجل باتباعه . قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » . وهذه الآية الكريمة تلخص أبلغ تلخيص دعائم مجتمع الفضيلة .

ويورد كل من ابن كثير والبيضاوى فى تفسيرهما قول ابن مسعود رضى الله عنه إن هذه الآية هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر . وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون رضى الله عنه : لو لم يكن فى القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شئ وهدى ورحمة للعالمين . ومن المعروف أن إقامة العدل فى

المجتمع مسئولية الحاكم والمحكوم معاً . فالحاكم يسن شرائع العدل كما يرتضيها النظام العقائدي والاجتماعي للبلاد ، والرعية تلتزم بهذه الشرائح وتراعيها وتطبقها في حياتها وتعاملها . ويورد ابن خلدون في المقدمة ( ٣٩ ) كلام " المؤيزان بن بهرام " في حكاية "البوم" التي نقلها المسعودي إذ يقول : « أيها الملك ، إن الملك لا يتم عزه إلا بالشرعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه . ولا قوام للشرعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل . والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك » . ويقول في نفس الصفحة نقلا عن كتاب "السياسة" لأرسطو : « العالم بستان سياجه الدولة ، والدولة سلطان تحيا به السنة ، والسنة سياسة يسوسها الملك ، والملك نظام يعضده الجند ، والجند أعوان يكفلهم المال ، والمال رزق تجمععه الرعية والرعية عبيد يكتفهم العدل ، والعدل مألوف وبه قوام العالم » . ويعلق ابن خلدون على ذلك بقوله : « فهذه ثماني كلمات حكيمية سياسية ارتبط بعضها ببعض ، وارتدت اعجازها إلى صدورها ، واتصلت في دائرة لا يتعين طرفها » . والعدل عند المعتزلة هو ما يقتضيه العقل من الحكمة وهو إصدار العقل علي وجه الصواب والمصلحة .

ومن مبادئ العدل المساواة . وقد أقرها الاسلام قبل المجتمعات الغربية بقرون طويلة فلم تعرف أمريكا هذا المبدأ إلا في القرن الثامن عشر على يد جيفرسون وفرنسا منذ الثورة الفرنسية ومنها إلى أوروبا . فقد نادى الإسلام على لسان نبيه الكريم (ص) بأن المسلمين كأسنان المشط في المساواة لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى وصالح العمل ، وأن المسلمين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم . وقال (ص) الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب . وقال (ص) يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ألا هل بلغت ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال فليبلغ الشاهد منكم الغائب . ونقيض العدل الظلم الذي ذكر ابن خلدون عنه بأنه بخراب العمران وفي ذلك يقول في المقدمة (ص ص : ٢٨٦ - ٢٩٠) : « إن الظلم مخرب للعمران وعائده الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاض . . ومن أشد

الظلمات وأتمطها فى إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق .  
فإن الرعية المعتملين إنما معاشهم وكسبهم من أعمالهم . . فإذا كلفوا العمل . .  
واتخذوا سخرى ( سخرة ) فى معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم . .  
وإن تكرر ذلك . . أفسد آمالهم . . وقعدوا عن السعى جملة فأدى ذلك إلى  
انتقاض العمران وتخريبه . . وأعظم من ذلك فى الظلم وإفساد العمران والدولة ،  
التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ، ثم فرض  
البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والإكراه فى الشراء والبيع . . ولا  
يجدون عنها وليجة إلا القعود عن الأسواق ، لذهاب رؤوس الأموال . . فتكسد  
الأسواق ويبطل معاش الرعايا لأن عامته من البيع والشراء . . وإذا كانت الأسواق  
عطلاً منها بطل معاشهم ، وتنقص جباية السلطان أو تفسد . . لأن معظمها من  
المكوس ( الضرائب ) على البياعات ، ويؤول ذلك إلى تلاشى الدولة وفساد  
عمران المدينة . . أما أخذ أموال الناس مجاناً والعدوان عليهم فى أموالهم  
ودمانهم وحرمتهم وأسرارهم وأغراضهم فهو يفضى إلى الخلل والفساد دفعة ،  
وتنتقض الدولة سريعاً بما ينشأ عنه من الهرج المفضى إلى الانتقاض . ومن أجل  
هذه المفاصد حظر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة ( أى التفاوض حول ثمن السلعة  
وسعرها ) فى البيع والشراء وحظر أكل أموال الناس بالباطل سداً لأبواب المفاصد  
المفضية إلى انتقاض العمران بالهرج أو بطلان المعاش . »

وقد نفى رب الجلالة الظلم عن نفسه بقوله « وما ريك بظلام للعبيد » كما  
توعد الظالمين بقوله فى سورة الزخرف ( ٦٥ ) : « فويل للذين ظلموا من عذاب  
يوم أليم » . والظلم من صفات مجتمع الرذيلة وسمة من سماته . من ناحية  
أخرى نجد أن مجتمع الفضيلة يقوم على الإحسان . ومعنى الإحسان أن تحسن إلى  
الناس كما أحسن الله إليك وتفيض عليهم من خيرك بمثل ما أفاض الله به  
عليك .

ويفرق أحد أمين ( الأخلاق : ص ١٣٣ ) بين العدل والإحسان بقوله : إن  
العدل واجب من الواجبات المحددة الواضحة التى لا يختلف فيها اثنان ولا  
يستثنى منها أحد . والقانون يعاقب كل من أخل بها وقصر فيها . أما الإحسان  
فواجب من الواجبات غير المحددة التى لا يعاقب عليها القانون على تركها .  
فليس لأحد أن يطالبك بمساعدته وأن تحسن إليه ويكرهك على ذلك ، حتى إذا

التجأ إلى القانون لن يجد نصيراً . فمدى القيام بالاحسان متروك لضمير الشخص وأحواله الخاصة من مال وقدرة وما فيه من عطف ومحبة وميل لفعل الخير وخدمة بنى الإنسان . ويستطرد فيقول إن العدل فى الجملة فضيلة سلبية لأنها تقضى بعدم الإضرار بأحد . أما الاحسان فهو فضيلة إيجابية أكثر من العدل. لأن الاحسان يقتضى فعل الخير ومعاونة المحتاج مادمت قادراً على ذلك . فالإحسان هو إقامة العدل وأداء الواجب والزيادة عليها . ويمكن الاعتراض على ما يذهب إليه أحمد أمين من أن العدل فضيلة سلبية لأن ذلك يقلل من شأنه ولا يضعه فى مكانه الصحيح من الفرد أو المجتمع . فالعدل أساس الملك كما هو معروف ولا يمكن أن يوصف بالسلبية ، والاحجام أو الامتناع عن الظم فى حد ذاته هو موقف إيجابى شأنه شأن الإقدام عليه . فالإحجام والإقدام طرفاً معادلة لها نفس الدرجة من الإيجابية . وهو نفسه يعود فيقول إن العدل والإحسان ليسا فضيلتين تنفصل إحداها عن الأخرى كل الانفصال . فالعدل كثيراً ما يتصل بالإحسان والإحسان لا بد أن يشمل العدل وإلا صار ظلماً . وهذا يعنى أن بين العدل والإحسان كمال إتصال فكيف يستقيم ذلك فى ظل ما يذكره أحمد أمين من سلبية إحداها وإيجابية الأخرى ؟

ومن دعائم مجتمع الفضيلة إيتاء ذى القربى أى صلة الأرحام واعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه وتقديم العون والمساعدة لهم ما أمكن المرء إلى ذلك سبيلاً . ومجتمع الفضيلة هو الذى ينبذ أفراده فعل الفحشاء الذى نهانا عنه الله . وتعنى الفحشاء القبيح الشنيع من قول أو فعل كما تعنى الإفراط فى متابعة القوة الشهوية والأعمال الكبيرة المشينة . وهو الذى يبتعد عن المنكر وهو ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع ، والذى لا يقر البغى وهو الظلم والتجبر والعدوان على الناس . تلك هى أهم دعائم مجتمع الفضيلة كما حددتها الآية الكريمة السابقة .

#### مجتمع الرذيلة :

من البديهي أن يكون مجتمع الرذيلة على نقيض مجتمع الفضيلة فى كل هذه الدعائم . ويعرف أحمد أمين الرذيلة ( ص : ١٠١ ) بأنها ميل مكتسب من تكرار أفعال ياباها القانون الأخلاقى والضمير . فهى عادة فعل الشر أو هى عادة

سينة للإرادة مثل الجبن والتردد والإفراط والتفريط . ومجتمع الرذيلة بحكم تعريفه مجتمع تنفشى فيه الرذيلة والانحلال الخلقى والتسيب الاجتماعي . وهي كلها مؤشرات تؤدي في النهاية بمثل هذا المجتمع إلى الانهيار والاندثار وهو ما حدث لكثير من الدول والمجتمعات السابقة في مختلف العصور والأزمان وهذا ما حدث بالفعل في المجتمع الجاهلي العربي وفي الحضارة الفارسية والرومانية أمام زحف الاسلام بمثله العليا وقيمه الانسانية الرفيعة والتي بشر بها وعمل على نشرها .

وقد فسر ابن خلدون ظاهرة انحلال المجتمعات عبر التاريخ . بقوله : غاية العمران الحضارة والترف وأنه اذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات . فالحضارة هي غاية العمران ونهاية لعمره ومؤذنة بفساده ( ص : ٢٧٤ ) . وينبغي أن نشير إلى أن هناك من البشر من أعيابهم البحث عن الفضيلة في كل مكان وعز عليهم أن يجدها . ففي كتاب «الفضيلة» للمنفلوطي نجد صورة من سراب الفضيلة . فقد فتش مؤلف الكتاب عنها في كل مكان ولم يجدها . وهو ما سبق أن أشرنا إليه . وديوجين الكلبى الاغريقى كان يسير بمصباح وسط النهار يبحث عن الإنسان الفاضل وكان ضوء النهار لا يكفى .

هذه النظرة موهلة في التشاؤم ولا تخدم غرضاً نافعاً . ففي كل زمان ومكان هناك الصالح والطالح والفضيل والرذيل . وعلينا دائماً أن نتذكر أن صلاح المجتمعات بصلاح أبنائها وأن صلاح هؤلاء الأبناء يكون أولاً بتغيير ما في نفوسهم لأن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . واذا كان السائل من لون الإناء على قول المثل فإن شكل أى مجتمع وقوته يستمد من المقومات الإنسانية والحضارية لأبنائه بما في ذلك صحة أجسامهم وعقولهم وأخلاقهم . وهذه هي المقومات الأساسية لمجتمع الفضيلة . وقد تصور بعض الفلاسفة والمفكرين مدينة فاضلة ومجتمعاً فاضلاً مثالياً Utopia من نسج خيالهم منهم أفلاطون والفارابى وتوماس مور . والمجتمعات على اختلاف شاكلتها ومنها المجتمع الاسلامى تمر بعصور قوة وازدهار وعصور ضعف وانهيار . ثم تعود إلى قوتها بعد ضعفها وحياتها بعد موتها . وأمثلة هذه الدول والمجتمعات فى العصور الحديثة ماثلة أمامنا منها اليابان الدولة الصناعية العملاقة بعد هزيمتها

النكراء فى الحرب العالمفة الثانية ومنها ألمانيا وهى تشارك اليابان فى نفس الظروف . ومنها المجتمع الإسلامى الذى يشهد حالفا صحوة هائلة فى كل المفاىء بعد قرون من التخلف ونرجو لهذة الصحوة أن تقوى وتستمر وأن تؤتى أكلها خيراً وافرأ عميماً . وينبغى أن نشير إلى ما ورد عن النبى (ص) عندما قال (ص) : « بدأ الإسلام غربياً وسيعود غربياً كما بدأ فطوبى للغرباء . قيل يا رسول الله ومن الغرباء قال : الذين يحيون سنتى ويعلمونها عباد الله . وفى رواية أخرى الذين يصلحون فساد الناس . ومعنى الحديث كما يقول القرطبى إن الدين الإسلامى سىتجمع فى الحجاز ويعتصم به عندما يكون غربياً فيعود إلى الحجاز كما بدأ منه ويكون عزيزاً قوياً فيه ثم يمتد وينتشر منه ثانية وهذا معنى أنه سيعود كما بدأ ( القرطبى : ج ٢ - ص ١٤٦ ) .

#### اختلاف المذاهب الأخلاقفة فى النظرة إلى الفضفلة :

تنظر المذاهب الأخلاقفة إلى الفضفلة من منظور يختلف أحدها عن الآخر . فمذهب الواجب أو نداء الضمير الذى يمثله الرواقفون الإغرفقفون فى القرن الثالث قبل المفلاد والفلففسوف الألمانية كانتظ فى القرن الثامن عشر وبعض علماء المسلمين ينظر إلى الفضفلة على أنها غاية الغايات وأسمى المقاصد وهى لفسى وسيلة لغافة أخرى وإنما هى غاية فى ذاتها وهى الخفر كله . ولا تتغفر أو تتبذل . فالفضفلة هى الفضفلة دائماً فى كل زمان ومكان . ومذهب المنفعة أو المذهب النفعى الذى يمثله الأبققورفون الإغرفقفون فى القرن الثالث قبل المفلاد ، والفلففسوف الغربى « هوز » فى القرن / ١٧ المفلادى والبراجماسفون فى العصر الحديث ينظر إلى الفضفلة على أنها تختلف باختلاف الرأى الشخصى واختلاف الزمان والمكان وتتحدد قفمتها بمقدار ما تجلبه من نفع وفائدة للشخص . ومذهب الكمال الذى يمثله هربرت سبنسر فى القرن التاسع عشر المفلادى وقبله بعض علماء المسلمين ينظر إلى الفضفلة على أن غايتها الأسمى كمال الإنسانفة جمعاء . ويقول ابن رشد فى هذا المعنى : إن الانسان لم يخلق عبثاً وإنما خلق لغافة محددة وهى أن فبلغ أو فدرك الكمال فى العلم والفضفلة . ولفس فإدراك ذلك أمراً ممكناً فى هذة الحفافة الدنيا لأنها حفاة عابرة . وحنفئذ لا بد من التسلفم عقلاً

بوجود حياة أخرى تعود فيها النفوس لتلقى حسابها وجزائها . . وقد اتفق الكل على أن للإنسان سعادتين أخروية وديوية (محمود قاسم : ص ١٨٦) .

الفضائل عند سقراط وأفلاطون :

لقد ذهب كل من سقراط وتلميذه أفلاطون إلى أن الخير الأسمى للإنسان هو السعادة . والسعادة في نظر سقراط ليست في الشراء أو المجد أو القوة وغيرها من المظاهر المادية الخارجية . ولكنها حالة معنوية تتحقق إذا استطاع المرء أن يلائم بين رغباته وبين الظروف التي يوجد فيها . وقد أثر عنه قوله : ليس الفقر والغنى في بيوتنا ولكنه في نفوسنا . ولسنا نسعد بتكديس الذهب والفضة ولكننا نسعد إذا نظمنا حاجاتنا ورغباتنا بحكمة .

وقد أكد الاسلام هذا المعنى عندما ذهب إلى أن الغنى غنى النفس . ونهى عن اكتناز الذهب والفضة لمجرد إقتنائها والرغبة في امتلاكها وإنما يجب أن تنفق في سبيل الله . قال تعالى : " والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيبشرهم بعذاب أليم " .

الفضائل عند أرسطو ،

تنقسم الفضائل عند أرسطو إلى قسمين : فضائل خلقية وأخرى عقلية . ونظراً لأنه يعتبر أن الإنسان يتكون من عقل وشهوة فقد جعل الفضائل الخلقية تلك التي تعمل على التحكم في شهوات النفس وأهوائها لإخضاعها لسيطرة العقل . وهذه الفضائل طريقها التعود عليها بالممارسة والتدريب . ولذلك يطالب أرسطو المرين والقائمين على شئون التربية بتعويد النشء على ممارسة الفضائل الخلقية حتى تصدر عنهم بطريقة تلقائية سهلة دون معاناة أو إجهاد للنفس . وهو ما يماثل تعبير ابن مسكويه والغزالي في كلامهما عن الخلق من حيث كونه سليقة ويصدر عن روية .

أما الفضائل العقلية فهي أعلى من الفضائل الخلقية عند أرسطو لأنها تقوم على التأمل العقلي وهو أعلى مراتب الانسان . وطريق هذه الفضائل التعليم والتعلم . ولا تتأتى بالممارسة أو التدريب كالفضائل الخلقية ، ويرى أرسطو أن

سعادة الإنسان تتحقق بالجمع بين الفضائل الخلقية والعقلية فى توازن واعتدال دون أن تطفئ إحداها على الأخرى ( انظر أيضا : فيصل بدير عون : ص ٣٢ - ٣٣ ) .

ويرى أرسطو أن الفضيلة وسط بين رذيلتين أو نقيضتين كل منهما ليس بفضيلة . فالشجاعة فضيلة تتوسط رذيلتين على طرفى نقيض هما التهور والجبن والكرم وسط بين الاسراف والتبذير وبين التقتير . وهكذا . وهو رأى نقله عنه علماء المسلمين من أمثال ابن مسكويه والغزالي وغيرهما كما سبق وأن أشرنا .

ويرى أرسطو أن الفضائل لا توجد فى المرء بفعل الطبع وحده ولكن الطبع يجعله قابلا لها والعادة تنميها وتتمها فيه . ومن الناس من ينقاد إلى الفضائل والموعظة ويرغب فى الخيرات لجودة طبعه . وهؤلاء قليلون . ومنهم من ينقاد إلى الخيرات بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب والخوف من العذاب أو الرغبة فى المشوية . وذلك ليهرب من الجحيم والهاوية وما فيها من آلام . ويعلق ابن مسكويه على ذلك ( ص ١٨١ ) بقوله : ولذلك حكمنا أن بعض الناس أخياراً بالطبع وبعضهم أخيار بالشرع والتعليم .

وقد عنى سقراط ببيان الفضائل التى توصل إلى السعادة الحقيقية فذكر أن أولى هذه الفضائل الاعتدال والتوسط لأنه وحده يوصلنا إلى الإحساس بالمتعة الحقيقية .

وثانية الفضائل العمل لأنه يمكننا من الحصول على ما نحتاج إليه بطريقة شريفة . فى حين أن البطالة أساس الفساد والشر لأنها تبدل الذهن وتضعف الصحة . وثالثة الفضائل العدالة وهى غاية السلوك الأخلاقى . وقد ميز سقراط بين نوعين من القوانين التى تنظم هذه العدالة . أحدهما القوانين المكتوبة أو المدونة وهى التى تنظم علاقات الناس ببعضهم فى حياتهم اليومية وتحقق الوفاق بينهم . وهذه القوانين تختلف باختلاف الزمان والمكان . وثانيهما القوانين غير المكتوبة وهى القوانين الأخلاقية التى لا تتغير بالظروف والأحوال لأنها قوانين مطلقة صادرة عن إرادة الآلهة . وهى ألزم للإنسان من القوانين المكتوبة بل إنها أساس هذه القوانين فى واقع الأمر . وفى الخوض لها راحة لضمير الإنسان

وسعادة لنفسه . أما أفلاطون خلافاً لسقراط فقد رأى أن المعرفة والعلم وحدهما لا يكفيان لأن يصبح المرء فاضلاً . فالإنسان قد يعرف الشر ويقدم عليه ويعرف الخير ويعزف عنه .

ولو كانت الفضيلة تنتقل بالتعلم كما تنتقل العلوم من عقل إلى عقل بالأدلة والبراهين لاستطاع حكماء أثينا أن يجعلوا من تلاميذهم فضلاء مثلهم . وقد أدلى أفلاطون برأى آخر فقال هناك نوعان من الفضيلة : فضيلة فطرية موروثية لا تعلم ولا تحتاج لتعليم ، وفضيلة أخرى حقيقية تتعلم وتكسب صاحبها فضلاً وتقديراً وهي تعتمد على معرفة الخير .

نقد القول بأن الفضائل رذائل مقنعة :

معيار الفضيلة عند سقراط العلم والمعرفة فالمعرفة فضيلة والجهل رذيلة وهو رأى يمكن قبوله . أما وجهة نظر السفسطائيين \* فهي مغايرة ولا يمكن أن نتفق معها . فهم يقولون بأن ما نعتبره فضائل ما هي إلا رذائل مقنعة . وهي

---

\* السفسطائيون نسبة إلى « السفسطة » ويذكر الفارابي في كتابه إحصاء العلوم أن السفسطة اسم المهنة التي بها يقدر الانسان على المغالطة والتمويه والتلبيس بالقول والابهام . والسفسطائي كلمة مركبة في اليونانية من سوفيا وهي الحكمة ومن « أسطس » وهي الموه فمعناه موه الحكمة وكل من له قدرة على التمويه والمغالطة بالقول في أى شئ كان ( الفارابي : إحصاء العلوم ص ٨١ ) .

ويعلق الدكتور عثمان أمين على هذا الرأى بقوله إنه ليس في بنية اللفظ "سفسطائي" في أصله اليوناني ما يدل على ذلك . بل معناه الأصل الرجل الحاذق البارع في أمر من الأمور دون شوائب التمويه والمخادعة . ولم يلحقه معنى الزرابة إلا بعد أن جنح السفسطائيون إلى إنكار الحقائق وأسرفوا في بذل المعارف ابتغاء المنافع الشخصية فجاء أفلاطون وأرسطو ومن بعده فأنحوا على السفسطائيين بشديد اللوم ولاذع التقرع ( الفارابي : إحصاء العلوم ص ١٥٣ ) .

من وضع الضعفاء الذين أرادوا من وراء التمسك بها ومطالبة الآخرين بالتزامها ، إخفاء ضعفهم وعجزهم . فليس العدل إلا عجزاً عن التفوق على الآخرين وليست العفة إلا عجزاً عن إشباع الشهوة ، وهكذا الحال فى جميع الفضائل الخلقية ( فيصل بدير عون : ص ١٢ ) .

الرد على أصحاب مذهب اللذة :

يقول ابن مسكويه إن الناس مائلون بالطبع الجسماني إلى الشهوات فيكثر اتباعهم ويقل الفضلاء فيهم ( ص ٥٥ ) . ويرد على فلاسفة الإغريق القدماء ومن هذا حذوهم من المحدثين الذين يعتقدون أن الفضيلة هي ما تدعوهم إليه طبيعة البدن من الملاذ ويقول إن من رضى لنفسه بتحصيل اللذات البدنية وجعلها غايته وأقصى سعادته فقد رضى بأخس العبودية ( أى عبودية الشهوات ) لأخس الموالى ( أى إبليس عليه اللعنة ) لأنه يصير نفسه الكريمة التى يناسب بها الملائكة عبداً للنفس الدنيئة التى يناسب بها الخنازير والخنافس والديدان وخسائس الحيوانات التى تشاركه فى هذا الحال . وهو يرى أن اشتياق الناس إلى الممذات يسبقه أولاً الاشتياق إلى ألم الحرمان منها . فإذا اشتاق المرء إلى لذة المأكّل فقد اشتاق أولاً إلى ألم الجوع لأنه إن لم يحس بألم الجوع فلن يلتذ بطعم المأكّل ( ابن مسكويه : ص ٥٤ ) .

ومن هنا يرى ابن مسكويه أن العفة فضيلة الحس والنزعة البهيمية عند الإنسان كما أن الحكمة فضيلة العقل أو النفس الناطقة وهى التى شرف بها الإنسان وبها شارك الملائكة وباين البهائم . وهو يقول مخاطباً بعبارات مؤثرة : فانظر رحمك الله أين تضع نفسك ؟ وأين تحب أن تنزل من المنازل التى رتبها الله تعالى للموجودات ؟ فإن هذا أمر موكول إليك ومردود إلى اختيارك . فإن شئت فانزل فى منازل البهائم فإنك تكون منهم وإن شئت فانزل فى منازل السباع ( إشارة إلى النفس الغضبية ) ، وإن شئت فانزل منازل الملائكة وكن منهم . وفى كل واحدة من هذه المراتب مقامات كثيرة . وهو يرى أن أخس الناس هو من كان قليل العقل قريباً من البهيمة . ويسوق الدليل على فساد مذهب اللذات بالحياة فى طلبها والتستر بالبيوت والتوارى فى الظلمات عند إتيانها . وهذا الحياء

والتستر هو دليل قبحها ولو كانت شيئاً جميلاً لتظاهر به أصحابه وأحبوا إخراجها وإذاعته . ويستطرد فيقول ولو سألت القوم الذين يعظمون أمر اللذة ويجعلونها الخير المطلوب والغاية الإنسانية : لم تكتفون الوصول إلى أعظم الخيرات عندكم ؟ وما بالكم تعدون موافقتها خيراً ثم تسترونها ؟ أترون سترها وكتمانها فضيلة ومروءة وإنسانية ، والمجاهرة بها وإظهارها بين أهل الفضل وفي مجامع الناس خساسة وقحة ؟ لظهر من انقطاعهم وتبلدهم في الجواب ما تعلم به سوء مذهبهم وخبث سيرتهم ( ابن مسكويه : ص ٥٨ ) . وهو ينصح المرء بعدم الانسياق وراء الملذات وطلب الشهوات بأن يجتهد على التدرج إلى فطام نفسه منها . وهو يعترف بصعوبة ذلك إلا أنه يقول : وهو على كل حال خير من التمدادى في الباطل . ويضرب المثل بنفسه فيقول وليعلم الناظر في هذا الكتاب أنى خاصة تدرجت إلى فطام نفسى بعد الكبر واستحكام العادة وجاهدتها جهاداً عظيماً . ورضيت لك أيها الباحث عن الفضائل ، والطالب للأدب الحقيقي ، بما رضيت لنفسى . بل تجاوزت لك فى النصيحة إلى أن أشرت عليك بما فاتنى فى ابتداء أمرى لتدركه أنت ودلتك على طريق النجاة قبل أن تتوه فى مفازة (صحراء ) الضلالة وقدمت لك السفينة قبل أن تفرق فى بحر المهالك . ( المرجع السابق : ٦١ )

#### الخيرات والسعادة :

تختلف أنواع الخيرات وما يرتبط بها من سعادة الفرد . فمن الخيرات ما يطلب لذاته لأنه هدف فى ذاته . ومنها ما يطلب لأنه وسيلة لبلوغ هدف أكبر . وقد تكون السعادة هدفاً فى ذاته ويسعى إليها المرء فى ذاتها . أما الثروة أو المال أو البنون أو الشهرة أو الصحة فهى أهداف مرحلية لتحقيق السعادة وأهداف أخرى . فهى وإن كانت أهدافاً فإنها بعد تحقيقها تصبح وسائل لتحقيق الأهداف الأخرى التى يرى الانسان أنها تحقق له سعادته . وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله فى سورة الكهف « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » وقوله فى سورة آل عمران « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة » ، والواقع أن الفلاسفة والمفكرين والحكماء قد

اختلفوا فى بيان أسباب السعادة وما الذى يجعل الانسان سعيداً ؟ فبعضهم قال إن الثروة هى السعادة . ولا شك فى أن الثروة والمال من مقومات السعادة فى الحياة لكنها ليست كل شئ . وبعضهم قال إن السعادة هى الصحة . فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفه إلا المرضى . وهذا صحيح لكن الصحة وحدها لا تكفى وإن كانت خيراً من المال والثروة لأنها هى التى تجلبها . وبعضهم يرى السعادة فى القناعة . فالقناعة كما يقال كنز لا يفنى . وهذا صحيح . وربما أن القناعة تحقق لصاحبها درجة من السعادة أكبر مما يحققه المال والصحة . وبعضهم يرى السعادة فى الفكر والتأمل والبحث العقلى . وهؤلاء هم أصحاب العقول وطبقة الفلاسفة والمفكرين والحكماء . وقد يكون فى ذلك مصداقية . لكن هناك وجهة نظر أخرى ترى أن المفكرين وذوى العقول لا يسعدون فى حياتهم بل وفى نعيمهم لما تجرّه عليهم عقولهم وتفكيرهم من شغل وهم . وقد عبر الشاعر العربى عن ذلك بقوله :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله . . وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

وبعضهم يرى السعادة فى الملذات الحسية من أكل وطعام ولبس وشهوة الجنس واللهم والطرب . وهذه الأمور وإن كانت كلها ضرورية للإنسان إلا أنها يجب أن تكون فى حدود الاعتدال وما شرعه الله . يقول ابن مسكويه (٩٨) إن أدنى رتب الفضائل تسمى سعادة وهى أن يصرف الإنسان إرادته ومحاولاته إلى مصالحه فى العالم المحسوس من أمور النفس والبدن . وهو يقول فى (ص ٩١) : إن السعادة على خمسة أقسام أحدها فى ضحة البدن ولطف الحواس . ويكون ذلك من اعتدال المزاج أى يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس . والثانى : فى الثروة والأعوان وأشباهاها حتى يضع المال فى موضعه ويعمل به سائر الخيرات ويواسى منه الفقراء والمحتاجين والمستحقين ، ويعمل به كل ما يزيد فى فضائله ويستحق الثناء عليه . والثالث : أن تحسن أحدوثته فى الناس وينتشر ذكره بين أهل الفضل فيكون ممدوحاً بينهم ويكثرون الثناء عليه لما يتصرف فيه من الإحسان والمعروف . والرابع : أن يكون ناجحاً فى الأمور ويتم له كل ما رام وأمل وعزم عليه . والخامس أن يكون جيد الرأى صحيح الفكر سليم

الاعتقادات فى دينه وغير دينه ، بريئاً من الخطأ والزلل جيد المشورة فى الرأى .  
فمن اجتمعت له هذه الأقسام كلها فهو السعيد الكامل ومن حصل له بعضها كان  
حظه من السعادة بحسب ذلك ومقدار ما حصله منها .

وهكذا تختلف وجهة نظر الناس فى السعادة الإنسانية . فكل منهم  
يرى سعادته فى تحصيل ما ينقصه وما لا يتوفر له . فالفقير يرى سعادته  
العظمى فى الثروة واليسار والمريض يرى أنها فى الصحة والعافية ، والدليل يرى  
أنها فى الحياة والسلطان والخلع يرى أنها فى التمكن من الشهوات والعاشق يرى  
أنها فى الظفر بالمعشوق . والفاضل يرى أنها فى إفاضة المعروف على المستحقين  
( المرجع السابق : ٩٤ ) .

ويرى المنفلوطى وهو الأديب والناقد الاجتماعى أن سعادة العيش وهناءه  
وراحة النفس وسكونها لن تأتى إلا عن طريق واحد هو الاعتدال ( المختارات :  
ص ١٥٧ ) ويقول فى مكان آخر ( نفس المرجع : ص ١٥٨ ) : وحسبك من  
السعادة فى الدنيا ضمير تقى ؛ ونفس هادئة ، وقلب شريف ، وأن تعمل بيدك  
فترى بعينك ثمرات مجهودك ومساعدتك تنمو بين يديك وتترعرع فتغبط برآها .  
ويقول أيضاً : إن أدب النفس سبيل سعادة الإنسان بحريته وفى ذلك يقول : لا  
سبيل إلى السعادة فى هذه الحياة إلا إذا عاش فيها الإنسان و لا يسيطر على  
جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره إلا أدب النفس ( المرجع السابق : ص :  
١١٨ ) وهو يرى أن السبب فى شقاء الإنسان أنه دائماً يزهد فى سعادة يومه  
ويلهو عنها بما يتطلع إليه من سعادة غده ، فإذا جاء غده اعتقد أن أمسه كان  
خيراً من يومه . فهو لا ينفك شقيماً فى حاضره وماضيه .

ويقول الغزالى فى كلامه عن أصل السعادة فى الدنيا والآخرة : إن أعظم  
الأشياء رتبة فى حق الآدمى السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها .  
ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل . ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية  
العمل . فأصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال .

الفضائل الخلقية من تمام الوجود الإنساني :

يقول ابن مسكويه ( ص ١٧٦ ) : « إن الفضائل الخلقية إنما وضعت لأجل المعاملات والمعاشرات التي لا يتم الوجود الإنساني إلا بها . ذلك أن العدل إنما احتيج إليه لتصحيح المعاملات ، ويحول معنى الجور ( الظلم ) الذي هو رذيلة عند المتعاملين ، وإنما وضعت فضيلة العفة لأجل اللذات الرديئة التي تحمى الحيوانات العظيمة على النفس والبدن . وكذلك الشجاعة وضعت فضيلة من أجل الأمور الهائلة التي يجب أن يقوم الإنسان عليها في كل الأوقات ولا يهرب منها . وعلى هذا جميع الأخلاق المرضية » . وهو يقول ( ص : ١٧٧ ) إن الكسل ومحبة الراحة من أعظم الرذائل لأنهما يحولان بين المرء وبين جميع الخيرات والفضائل ويسلخان الإنسان من الإنسانية . ولذلك ذمنا المتوسمين بالزهد . إذا انفردوا عن الناس وسكنوا الجبال والمفازات ( الصحراء المهلكة ) ، واختاروا التوحش الذي هو ضد التمدن لأنهم ينسلخون عن جميع الفضائل الخلقية التي عددناها كلها . وكيف يعف ويعدل ويسخو ويشجع من فارق الناس وتفرد عنهم ويعد عن الفضائل الخلقية . وهل هو إلا بمنزلة الجماد والميت ؟ »

الألم ينبوع الرحمة :

يقول المنفلوطي بأن الغنى الذي لم يذق طعم الفقر في حياته قلما يشعر بآلام الناس ومصائبهم أو يعطف على بأساتهم وضرائهم . وهو يرى أن الألم ينبوع تفجر جميع عواطف الخير والإحسان في الأرض . . . بل هو معنى الإنسانية وروحها وجوهرها . فمن حرمه حرم كل فضيلة من فضائل النفس » . ( المنفلوطي : المختارات : ص ١٤٩ ) . ومع أن المنفلوطي لا يقول بأن الثروة والغنى علة فساد الأخلاق وأن الفقر علة صلاحها فإنه يقرر عن تجربة واستقراء أن كثيراً من أبناء الفقراء ناجحون وأن قليلاً من أبناء الأغنياء عاملون . ويستطرد فيقول ( المختارات : ص ١٥٦ ) :

« إن العلوم والمعارف والمخترعات والمكتشفات المدنية الحديثة بأجمعها حسنة من حسنات الفقر وثمره من ثمراته . وما المداد الذي كتبت به المصنفات ودونت به الآثار إلا دموع البؤس والفاقة . . . وما أشرفت شمس الذكاء والعقل

فى مشارق الأرض ومغاريها إلا من ظلمات الأكواخ الحقيمة والزوايا المهجورة . وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء أو حكماء أو أدباء إلا فى مهود الفقر وحجور الإملاق . ولولا الفقر ما كان الغنى ولولا الشقاء ما وجدت السعادة » . ويقول فى مكان آخر : لو تراحم الناس لما كان بينهم جانع ولا عريان ولا مظلوم ولا مغبون ، ولأقفرت الجفون من المدامع وأطمأنت الجنوب فى المضاجع . ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع . ومن عباراته المشهورة : امسحوا دموع الأثقياء وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء . وهو يرى أن الألم هو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنسانى ، والجامعة الوحيدة التى تجمع بين طبقاته وأجناسه . بل هو معنى الإنسانية وروحها وجوهرها . وإلى جانب المنفلوطى فى نظرتة إلى الألم على أنه ينبوع الرحمة والتراحم نجد الفيلسوف الألمانى المعروف « شوبنهاور » يذهب إلى نفس الرأى . وهو يرى أن التعاطف والتراحم يخرج الإنسان من نطاق الأنانية البغيضة والعزلة الذاتية النفسية والاجتماعية ويجعله يندمج فى الحياة مع الآخرين ويشاركهم فى أفراحهم وأحزانهم . فالرحمة تقرب المرء من الكمال الإنسانى وتضفى عليه إنسانية رفيعة تقربه من الإنسان الفاضل الكامل .

ونجد فى قصة « السيد والعبد » للأديب الروسى المعروف « تولستوى » أنه يصف لنا كيف أن السيد غليظ القلب قد رق لحال العبد عندما رآه يحتضر من الجوع والبرد . وعندها تحول السيد إلى شخصية أخرى متعاطفة ومحبة للآخرين ( نازلى اسماعيل صالح : ١١٢ ) وفى قصة أخرى له بعنوان « النور يضوى فى الظلام » يصور لنا تولستوى بطل قصته فى صورة الشخص الذى يذيق نفسه العذاب ، ويحرم على أبنائه الاستمتاع بمباهج الحياة ومنها سماع الموسيقى . ويشير تولستوى دائماً إلى أن عدد المعذبين فى الأرض أكثر من السعداء . وهذا يعنى أن وجود المعذبين بالأرض أمر لازم لبقاء الشعور الإنسانى بالرحمة ( المرجع السابق : ١١٥ ) . وقد كتب عميد الأدب العربى الراحل طه حسين قصة بعنوان « المعذبون فى الأرض » وصدرها بقوله : إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل أسوق هذا الكتاب . وهو

كتاب يفيض بكثير من القيم النبيلة والمشاعر الإنسانية الرفيعة التي قوامها الرحمة والتراحم والعطف والتعاطف فى ظل العدل والعدالة . وقد أضفى رب العزة على نفسه صفة الرحمة فى كثير من المواضع فى القرآن الكريم منها قوله فى سورة الأنعام « وربك الغنى ذو الرحمة » وقوله فى سورة الكهف « وربك الغفور ذو الرحمة » وفى آية البسملة « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وفى سورة البقرة « وأنا التواب الرحيم » وفى سورة التوبة « وأن الله هو التواب الرحيم » . وفى سورة الأعراف « وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين » . وهكذا نجد أن قيم المشاركة الوجدانية والعاطفية على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للفرد والمجتمع على السواء بل إنها لحمة النسيج الاجتماعى الذى يحفظ للجماعة مقوماتها الحيويّة والانسانية . والمشاركة الوجدانية كما هو معروف تقلل من الحزن وتخفف من الآلام كما أنها تزيد من الفرحه والبهجة فى النفوس . وكلما زادت هذه القيم فى درجة الاخلاص وعمق المشاعر فى المشاركة زاد تأثيرها على مشاعر الآخرين وعواطفهم . ويجب أن تتخطى مشاعر الحب حدود الوطن الإقليمى الضيق ليشمل حب الإنسانية برمتها فكلنا أبناء آدم وآدم من تراب وإلى التراب نعود . وعكس الحب الكراهية وهى قيمة إنسانية بغیضة يجب أن يترفع عنها الإنسان الحق فهى قيمة سلبية تسلب الفرد والجماعة والإنسانية جميعاء من أسمى المشاعر الإنسانية النبيلة وتحولها إلى جماعات بغیضة متنافرة.

### أبو الشمقمق مازال حيا يرزق :

كتب المنفلوطى مقالا بعنوان « أبو الشمقمق » تهكم فيه على المفارقة الاجتماعية فى مصر بين الفقير المدقع والغنى المترف . قال فيه المنفلوطى موجهاً سؤاله لأبى الشمقمق : ألا يعجبك يا أبا الشمقمق حديث النهضة التى نهضتها الأمة المصرية . . وأنت جزء من أجزاء جسمها ؟ ، فقال أبو الشمقمق : إن كنت تريد أننى فرد متكرر كثير الأشباه والأمثال فى العوز والفاقة ، وواحد لا سند لى ولا عضد ، ودائر فى مدارج الطرق ومعابر السبل ، فقد أصبت وأحسن . وإن كنت تريد معنى غير ذلك فأنا لا أفهم إلا كذلك . ويستطرد الحوار والنقاش

بينهما إلى أن يقول أبو الشمقمق : إن لم تبين لى سهمى من هذه السعادة ونصيبي من ذلك الارتقاء فلا أصدق سعادة ولا أتصور ارتقاء . . ومادامت يدى تقصر عما تتناوله أيديهم ، ويطنى لا تمتلئ بما يمتلئ به بطونهم ، وما دمت لا أدرى واحداً بينهم يلبس معى ردائى الممزق وقميصى الممزق . . فهيهات أن أسعد بسعادتهم . فقلت : إن الغيث إذا نزل يسقى الخصب والجديب . . فقال : كل سماء فيها هذا الغيث إلا سماء مصر . فإنى أراه :

كبدر أضاء الأرض شرقاً وغرباً . . وموضع رجلى منه أسود مظلم

مالى وللروض الذى لا أستنشق روحه وريحانه ، والقصر الذى لا أدخله مالكاً ولا زائراً . وهب أن الطريق مفروشة بالحرير والديباج لا بالحصى والمدر (الطين اللزج ) ، فهل أبقى لى الدهر من حاسة اللمس شيئاً فأستطيع أن أميز بين خشن الملمس وناعمه ؟ . . وهبنى إذا أمشيت خضت فى بحر مائج بأنوار الكهرياء . . فهل يكون نصيبي منه إلا انكشاف سواتى وراثته حالى ؟ . . لقد حبيب إلى الظلام حتى تمنيت دوامه لألبس من ثوبه . . ما يكفينى مؤونة الرتق والفتق . . مالى وللمدارس والمستشفيات وأنا لا جوعان علم ، ولا مرض عندى إلا مرض الفاقة . وينهى المنفلوطى الحوار بينه وبين أبى الشمقمق بقوله : ثم نهض ومد يه إلى مودعاً فمسحت دمعة من دموعه الكثيرات . ألا رحم الله المنفلوطى لكن أبا شمقمقه مازال حياً يرزق . فما أشبه الليلة بالبارحة . وربما أن مشاكله زادت بتعقد الحياة المعاصرة وزيادة الفجوة بين الغنى والفقير . ولو أن المنفلوطى بعث من جديد لهاله ما وصل إليه حال أبى الشمقمق من التعاسة والبؤس فى عصرنا الحاضر .